الكتاب: سلطة الاتصال

تأليف: مانويل كاستلز

ترجمة: محمد حرفوش الناشر: المركز القومى للترجمة

مانويل كاستلز وسلطة الاتصال: عن مجرة الانترنت التى تجر العالم داخلها

قراءة وعرض: د. أيمن عبد الهادي*

يُعد المفكر الأمريكى الإسبانى الأصل مانويل كاستلز **Manuel Castell** من أبرز المنظرين فى مجال الاتصال الشبكى بشكل عام وقد شكل الانترنت كوسيلة اتصالية مجالاً خصباً لتقديم أفكاره التى يمكن إدراجها ضمن مدرسة الحتمية التكنولوجية التى وضع أسسها الباحث الكندى مارشال ماكلوهان **Marshall Mcluhan**. والفرق فى أطروحات الباحثين اللذين يفصل بينهما أكثر من عقد واضح الدلالة بسبب التطور فى المكونات التقنية للاتصال، فماكلوهان كان قد منح الكلمة العليا لجوتنبرج مخترع الطباعة ونشر عام 1962 كتاباً حمل أفكاره الرائدة بعنوان "مجرة جوتبرج". كان اختراع الطباعة إذن نقطة الارتكاز عند ماكلوهان فى تحليلاته التى قدمها لوسائل الاتصال. وكان فهم الطباعة يساعد، من وجهة نظره، على فهم بقية التطورات التكنولوجية التى حدثت بعدها فى مجال الاتصال. دخل الإنسان مع اختراع الطباعة إلى مجرة جوتنبرج، مجرة المطبوع، وتغيرت معها تجربته وقدراته الذهنية وأحدثت بالتالى تعديلات بارزة فى الثقافة الإنسانية. هى حققت حسب تعبيره "الطور الأقصى فى الثقافة الأبجدية" التى تجاوزت "طور المخطوطة. المطبعة أيضاً أتاحت فكرة الاستمرارية والتكرار الناتج من امكانية نسخ المضمون الواحد. هى أيضاً ساعدت الفرد على الانعتاق من الجماعية والقبلية. الإنسان أصبح بوسعه أن يطور أفكاره وتأملاته حول النص الواحد، طالما كان بوسع العديد من الأفراد قراءته فى شكله المطبوع .أما مانويل كاستلز فأعلن

* مدرس بقسم الصحافة – كلية الإعلام – جامعة القاهرة

من دون موارية أن العالم يعيش حالياً زمن مجرة الانترنت.يمكن اعتبار أفكار مانويل كاستلز البنية النظرية للاتصال الشبكى الذى بدوره يعد المكون الرئيسى لإنترنت وخاصيته المتفردة. كاستلز كان قد ضمن أرائه فى عدد من كتبه الرئيسية من أهمها كتاب عصر المعلومات المكون من ثلاثة أجزاء، وكتابه "مجرة الإنترنت"، الذى عرض فيه للتحول الحادث فى النموذج الإرشادى للاتصال التقليدى الذى انتقل من مجرة جوتنبرج حسب نظرية مارشال ماكلوهان اللى مجرة شبكة الإنترنت التى احتوت داخلها أهم وسائل الاتصال السائدة. وأخيراً كتابه سلطة الاتصال الذى نشر بالإنجليزية عام 2009 وترجم حديثاً إلى اللغة العربية، وعرض فيه لنظريته الاتصالية المرتبطة بالعصر الرقمى وعلاقتها بفكرة السلطة التى تتاكد من خلال النفوذ المتزايد للشركات العالمية لوسائل الإعلام والتكنولوجيا الرقمية الجديدة. ونتوقف عند هذا الكتاب تحديداً لعرض اسهام كاستلز النظرى فيما يتعلق بالإنترنت والذى اشتمل على مجموعة من الأفكار الأساسية نعرض فيما يلى لبعض منها:

1- التفاعلية أو سيادة صيغة الاتصال الذاتى الجماهيرى

ينطلق كاستلز من تعريف الاتصال باعتباره **تفاعل** أو مشاركة فى المعنى من خلال تبادل المعلومات. والاتصال كعملية يتحدد ويتوقف على التكنولوجيا من جهة وعلى خصائص المرسلين والمستقبلين للمعلومات وجعبتهم الثقافية ومرجعياتهم من جهة أخرى. يرتبط الاتصال ايضاً بالسياق الاتصالى ذاته.

ويفرق بين الاتصال بين الأشخاص وصفته الأساسية التفاعلية والاتصال الجماهيرى الذى يسير فى اتجاه واحد أى لا يحظى بخاصية التفاعلية أو يكون محدد التفاعل بين أطرافه، حيث يمكن للجمهور التعليق على البرامج الحوارية فى التليفزيون والراديو وكتابة الرسائل إلى الجريدة المطبوعة أو إرسال رسائل بالبريد الإليكترونى. لكن حين جاء الانترنت، ظهر شكل جديد من الاتصال التفاعلى يتميز بإمكانية إرسال رسائل من العديد من الأشخاص إلى أشخاص أخرى فى الحال وفى أى وقت معين.

يطلق كاستلز على هذا الشكل الذى يهيمن على الانترنت كوسيلة اتصال **صيغة الاتصال الذاتى الجماهيرى**. ويقدم شرحاً للعنصرين الحاكمين فى هذه الصيغة أى الجماهيرية والذاتية كالتالى:

الجماهيرية: لأن هذ النوع من الاتصال له القدرة على الوصول إلى جمهور كبير جداً، عالمى، كما هو الحال فى مقاطع اليوتيوب والبريد الإليكترونى.

الذاتية: لأن إنتاج الرسالة ذاتى وتحديد الطرف الآخر فى الاتصال اى المستقبل/ المستقبلين يتم ذاتياً، كما يخضع التعرض للرسائل المعروضة من خلال الوسيلة إلى الانتقائية.

الثابت إذن هو اندماج صيغ الاتصال الشخصية والجماهيرية والذاتية الجماهيرية معاً فى "نص رقمى، له روابط ومتفاعل ومركب، يحتوى ويمزج ويعيد الربط، فى تنوعه، بين طائفة كاملة من التعبير الثقافى، ينقلها التفاعل الإنسانى".

2- تقارب الأساليب وتلاشى الحدود بين وسائل الاتصال:

يقول كاستلز إن تقارب الأساليب، وهو ما أشرنا إليه من قبل بمفهوم التقارب التكنولوجى، يطمس الحدود بين وسائل الاتصال من نقطة واحدة إلى نقطة أخرى واحدة مثل البريد والهاتف والتلغراف ووسائل الاتصال الجماهيرى مثل الصحافة والراديو والتليفزيون. وقد تنقل وسيلة مادية واحدة مثل الأسلاك أو الكوابل الخدمات التى كانت تقدم فى الماضى من خلال أكثر من وسيلة، كما أن الخدمات الإعلامية وغيرها التى كانت تقدم مثلاً من خلال الإذاعة والصحافة يمكن تقديمها عبر وسائل مادية مختلفة ومتعددة، ومن وجهة النظر التكنولوجية، "تقاربت شبكات الاتصال عن بعد، وشبكات الكمبيوتر وشبكات الإذاعة، استناداً على التشابك الرقمى وتكنولوجيات التخزين والنقل الجديدة للبيانات وبخاصة الألياف البصرية والاتصال عبر القمر الصناعى وبرامج الكمبيوتر المتطورة". ذلك كله ساعد فيما بعد على تأسس الإنترنت الذى استفاد من كل تلك الاماكنيات التى انعكست فى مفهومة كوسيلة اتصال.

مرة أخرى، يركز مانويل كاستلز على عملية تقارب الأساليب أو تلاشى الحدود بين الوسائل الاتصالية المعاصرة والتى تتجلى فى الإنترنت وتطبيقاته:

"الحدود بين وسائل الإعلام الجماهيرية والأنماط الأخرى من الاتصال تتلاشى. فالبريد الإليكترونى هو فى الغالب صيغة اتصالية من شخص لشخص، حتى حين الأخذ فى الاعتبار إرسال نسخ منه إلى الآخرين أو فى حالة إرساله إلى عدد هائل من العناوين. لكن الإنترنت أوسع بكثير من هذا . فالشبكة العنكبوتية العالمية هى شبكة اتصال تستخدم فى نشر وتبادل الوثائق. وقد تكون هذه الوثائق نصوصاً أو ملفات صوت أو فيديو أو برامج كمبيوتر- أى كل شىء بالمعنى الحرفى، يمكن تحويله إلى الصيغة الرقمية".(ص.104)

المقارنة إذن بين الإنترنت وغيره من وسائل الاتصال قد تصبح بلا معنى لأنه ضم الوظائف التى كانت تؤديها للجمهور كما ضم وظائف أخرى تفوقها ويتميز عليها كونه أيضاً وسيلة اتصالية يتم استخدامها فى لأغراض العمل أو الدراسة وليس فقط فى الترفيه الذى يغلب على وظائف وسيلة اتصال جماهيرية مثل التليفزيون. وهكذا المقارنة بين الإنترنت والتليفزيون تصبح بلا معنى فيما يتعلق بالجمهور، كما كان الحال غالباً فى التحليلات القديمة لوسائل الإعلام، استخدام الانترنت ذو الطابع المتعدد قد يختلف عن استخدام التليفزيون:

"نحن لا نشاهد الإنترنت كما نشاهد التليفزيون. وفى الممارسة يعيش مستخدمو الإنترنت (غالبية السكان فى المجتمعات المتقدمة وقسط متنام فى العالم الثالث). مع الانترنت. وكما يوضح جزء كبير من الأدلة أن الإنترنت، فى طائفة متنوعة من تطبيقاته، هو النسيج الاتصالى لحياتنا فى العمل والاتصال الشخصى ولإقامة شبكة اجتماعية وللحصول على المعلومات والترفيه والخدمات العامة والسياسة والدين. ولا يمكننا أن نسلخ الترفيه أو الأنباء عن هذا الإستخدام الذى لا يتوقف للإنترنت ومقارنته بوسائل الإعلام الجماهيرية فيما يتعلق بساعات "المشاهدة"، لأن العمل على الإنترنت يتضمن تصفحاً، من حين إلى آخر، لمواقع ليس لها علاقة بالعمل، او إرسال رسائل بريد إليكترونى، كنتيجة للوظائف المتعددة واسعة النطاق فى بيئة المعلومات الجديدة. وإضافة إلى هذا، فإن استخدام الإنترنت يتزايد فى الوصول لوسائل الإعلام الجماهيرية (التليفزيون والراديو والصحف)، مثل أى صورة لمنتج ثقافى أو معلوماتى رقمى". (ص.104).

لم تتقارب الأساليب بين الوسائل الاتصالية القديمة والجديدة فقط لكن الأخيرة احتوت الأولى كذلك. غير الانترنت التليفزيون فى خاصية أساسية هو أن مستخدم الانترنت لم يعد يقبل أن يشاهد التليفزيون وفقاً لجدول زمنى يضعه غيره. بمعنى أنه يشاهد كل البرامج التليفزيونية على شاشات الكمبيوتر الخاصة به وكذلك على هاتفه المحمول.

تغيرت إذن صيغة التليفزيون كوسيلة إعلامية جماهيرية حيث أصبح استقباله مع الإنترنت فردياً. الأمر نفسه يمكن أن يقال مع الصحافة المطبوعة، فقد حدث تحول حقيقى فى غرف الأخبار نفسها التى بدأت تعتمد على الإنترنت فى عمليتى الانتاج والتوصيل.

3- تغير مفهوم الجمهور

تزايدت قدرة الجمهور بالمعنى الكلاسيكى للمفهوم أى وفقاً لأدبيات دراسات جمهور وسائل الاتصال الجماهيرى التى تنظر إليه باعتباره متلقى الرسائل الاتصالية على القيام بدوره فى عملية الاتصال مع التطورات التكنولوجية المرتبطة بصعود الاتصال الذاتى الجماهيرى. انتشار الإنترنت والاتصال اللاسلكى يدعم ويعزز ممارسات الاستقلال التى تتضمن المختوى الذى ينتجه الجمهور ويضعه على الشبكة. تحول القائم بالاتصال أيضاً بمعناه التقليدى فى الدراسات الإعلامية باعتباره المرسل ليُصبح المرسل والمستقبل فى الوقت عينه وأصبح هو الكيان المحورى فى مجرة الإنترنت. أصبح الجمهور ليس فقط نشطاً ولكن مبدعاً حتى فى ظل نفوذ وتأثير الشركات الإعلامية العالمية المهيمنة على أشكال الثقافة الرقمية الجديدة:

"الناس تُعرف بتنوعها ما دام أنهم مستهلكون ولأن تقنيات وسائل الإعلام الذاتى الجماهيرى تسمح بإمكانية أكبر للمبادرة لصالح القائمين بالاتصال (ما دام انهم يرون أنفسهم كمواطنين)، يظهر جمهور مبدع، فيعيد مزج تنوع الرسائل والرموز التى يتلقاها مستخدماً رموزه ومبادراته الاتصالية، إذن فرغم التركيز المتزايد للسلطة ورأس المال والإنتاج فى النظام الاتصالى الجديد، يتزايد تنوع المحتوى الفعلى وصيغة الممارسات الاتصالية" (ص.215-216).

4- تأثيرات الاستخدام النشط للإنترنت:

التفاعل بين الإنترنت ووسائل الاتصال الجماهيرى التقليدى له تأثيراته أجملها كاستلز تأسيساً على الجهود البحثية المبذولة لرصد مثل هذا التفاعل فى نقاط ثلاثة:

أ) طغيان الوقت المخصص للاتصال عبر الإنترنت على حساب الوقت المخصص للأنشطة غير المتوافقة مع استخدام الإنترنت.

ب) التحلل التدريجى لفكرة "وقت الذروة" لصالح فكرة "وقتى الخاص".